تلازمي المهني والإنساني برجل المرحلة "محمد الرشيد"

د. سعيد بن محمد المليص

ترتبط حيـاة الناس وذكرياتهم وتاريخهم بالإنسان والزمان والمكان، فهي العناصر المكونـة لأحداث مسيرتهم، ومنعطفات حياتهم، وعندما يستعيد الفرد ذكرياته يندر أن يجـد تلك العناصر وقد ترابطت فـي صورة متصلة متناسقة ومتزامنـة، غير أني حينما أسترجع ذكريات جميلة مضت جمعتني بالصديق والزميل محمد بن أحمد الرشيد، أجد نفسـي وكأني أحاول كتابة تاريخي التربوي والتعليمي بـكل معنى الكلمة، أو قل: المراحل الأهـم والأبـرز المهنيـة، وكأني كنت على موعـد دائم معه، إذ شـاء الله تعالى أن أخلفه فـي كثيـر من المحطات المهنية فـي حياتي، وهذا من فضل الله تعالـى أن أكرمني بهذا الارتبـاط الأخوي مع رجل من خيرة الرجال علماً وأدباً وإنسانية، فكان بحق رجل مرحلة ملهماً، له بصمات مشرفة في تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية ومسيرة التعاون التربوي المشترك لدول الخليج، بل امتدت على عالمنا العربي، لتؤكد قدرة أبناء المملكة على العطاء في مختلف الميادين.

وحينمـا أود تسجيـل أبرز المحطـات العملية التـي جمعتني بأبي أحمـد، والتي تعد منعطفـات مهمة كان لها ما بعدهـا في حياتي المهنية الطويلة أجدني أعود بالذاكرة إلى المحطات المهمة الآتية:

١. كلية التربية بمكة المكرمة عام ١٣٨٥هـ.

٢. جامعة إنديانا بالولايات المتحدة الأمريكية، قسم تقنيات التعليم ١٣٩٨هـ.

عضو مجلس الشورى، نائب وزير التربية والتعليم للبنين سابقاً.

٣. مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٢هـ.

٤. جامعة الملك سعود ١٤١٠هـ.

٥. مجلس الشورى ١٤١٤هـ.

٦. وزارة المعارف ١٤١٦هـ.

٧. مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤١٨هـ.

٨. وزارة التربية والتعليم ١٤٢٦هـ.

إنني أستذكر هنا تجربة طويلة حافلة قاربت نصف قرن من الزمان من عمرها، ولازالت هذه التجربة تنمو في كل مرة ألتقي فيها (أبا أحمد) أو أهاتفه، فقد كانت البداية الأولى العام الدراسي ١٣٨٥/١٣٨٦هـ، حين قررت مع بعض زملائي إكمال تعليمنا والالتحاق بكلية التربية والشريعة بمكة المكرمة، التابعتين لوزارة المعارف في ذلك الحين.. ودعنا مدارسنا، حيث كنا نعمل مديرين لها في زمن كانت المدارس لا يتعدى عدد طلابها بضع مئات.. واستقر بنا المقام في مكة المكرمة وكان عدد الطلاب قليلاً في هذه الكلية، إذ لا يزيد مجموع طلبة كلية التربية بأقسامها: الاجتماعيات وعلم النفس والعلوم والرياضيات واللغة الإنجليزية عن ١٥٠ طالباً، يعلمهم أساتذة مسلمون وعرب، ولا يوجد سوى دكتور سعودي واحد أو اثنين، ولكنها كانت ملأى بعدد من المعيدين الشباب، الذين كنا نعجب بهم، ونتطلع إلى اليوم الذي نكون فيه في صفوفهم، ومن هؤلاء الشباب المتوقدي الحماسة كان الشاب «محمد بن أحمد الرشيد» خريج جامعة الرياض المعيد بكلية التربية بمكة المكرمة.

في جامعة إنديانا يشهدون ويشيدون

مضى العام الدراسي الأول ومضى المعيدون معه، وتساءلنا عن سبب انقطاعهم، فجاءتنا الأنباء: أنهم يواصلون تعليمهم العالي في جامعات غربية، ومن ضمنهم بطبيعة

الحـال أستاذنا محمد الرشيد الذي كان له تقديـره الخاص بين أقرانه، لما تميز به من مؤهلات القيادة والريادة والأخلاق الرفيعة، التي تتسم بها شخصيته، وتميزه بين أقرانه «وما فتئ يمارسها إلى اليوم أمد الله في عمره».

لقد انطلق «المعيدون والطلاب» ينهلون بحماسة منقطعة النظير من العلوم والمعارف في تلك الحقبة المفصلية للتعليم في المملكة العربية السعودية، وغابت الأخبار عقداً من الزمـان حتى كتب الله تعالى لي السفر لإكمال تعليمي فـي جامعة إنديانا وهناك حدثني رئيـس البرنامج التدريبي السعودي – وهو البرنامج الذي وقعته الوزارة مع مجموعة من الجامعات الأمريكية لرفع مستوى الإدارة التربوية في المملكة وإطلاع العاملين فيها على المستجـدات في حقـل التعليم والتربيـة – هناك حدثني ذلك الرجـل عن مجموعة من الشباب الذين حصلوا على الماجستير من الجامعة، ثم انتقلوا إلى ولاية أخرى للحصول على الدكتوراه، وأثنى ثناءً عطراً على اثنين منهم، وهما الشابان محمد بن أحمد الرشيد وعبد الله الزيد.

بعد ذلك الموقف بمدة ليست طويلة وصلنا خبر أن عميد كلية التربية بجامعة الرياض (الملك سعود) يعترض على مستوى التعليم في جامعة أنديانا وعلى المستوى التحصيلي لبعض خريجيها، ولم يكن عميد الكلية ذاك إلا الدكتـور محمد بن أحمد الرشيد، الذي شغـل أساتـذة الجامعة حينئذ، فكان مصـدر إعجابهم، وانضم إلـى رأيه شريحة كبيرة منهم لمعرفتهم أن بعض أقسام جامعتهم ينقصها الاهتمام بمستوى طلابها التحصيلي، وكان لذلـك الجـدل تأثيره البالغ على بعض الطلبة السعوديين، الذين أدركوا أنهم أمام مـأزق حقيقي إذا لـم يهتموا بما أتوا من أجله من الدراسـة والتحصيل والنهل من معين العلوم وحقول التجارب.

وتسارعـت الأيـام، وعدت من الولايـات المتحدة الأمريكية، وعوضاً عـن العودة إلى المكان الذي انطلقت منه للتعليم عملت في الرياض في مركز العلوم والرياضيات والكلية المتوسطـة في ذلك الحين، ومن ثم عملت في جهاز الوزارة مديراً عاماً للتوجيه التربوي

والتدريب، وكان الأخ الصديق الدكتور محمد بن أحمد الرشيد في ذلك الوقت مديراً عاماً لمكتب التربية العربي لدول الخليج.

مكتب التربية العربي والتعاون المشترك

يؤمن الدكتور الرشيد أن «العلم رحم بين أهله»، وأنه جسر للتعاون وطريق للترابط بين الأشقاء، وقد استطاع أن يجعل مكتب التربية العربي لدول الخليج مؤسسة فاعلة في هذا الميدان، وكعهد الحقل التربوي به أينما حط رحاله في مؤسسة تربوية أبدع في أوجه نشاطها، لتتجاوز حدود أسوارها، وتتفتح على من حولها، وأذكر أنه في عام ١٤٠٢هـ وصلتني دعوة من مدير عام مكتب التربية العربي لدول الخليج للمشاركة في حلقة دراسية يقيمها المكتب كل أسبوع أو أسبوعين، حيث تتم دعوة أحد العلماء في فن من الفنون ويجري النقاش حول مائدة مستديرة، لتبادل الخبرات حول موضوع أو قضية تهم التربويين، فيما يعد ورشة عملية تدريبية مثرية.. وكان هذا البرنامج منعطفاً مهماً في أروقة المؤسسات التربوية ليس في المملكة فحسب، بل في دول الخليج.

حضرت حلقات عديدة، وفي كل مرة وجدتني أزداد إعجاباً وتقديراً لهذه القامة التربوية، التي يتمتع بها هذا الرجل المبادر، الذي حمل هموم التربية والتعليم في مجتمعنا المحلي والخليجي بل والعربي.. وانطلق يحلق حتى برز مكتب التربية العربي لدول الخليج وجمع حوله من علماء الأمة العربية والإسلامية التي يشهد لها اليوم على الساعة الإسلامية والعربية بالريادة والمعرفة وسعة الأفق والفكر والقيادة الفكرية، واستطاع أن يؤسس للمكتب قامة بارزة وصرحاً تربوياً في الساحة الخليجية هي جامعة الخليج العربي، التي احتضنت مملكة البحرين مقرها ولا تزال حتى اليوم تعمل تحت مظلة المكتب، الذي كان له دوره المعروف في تثبيت دعائمها واستمراريتها في ساحة العمل التربوي المشترك.

وبحكم عملي في وزارة التربية (المعارف) توطدت صلتي بمكتب التربية، لأنه كان المعين الأبرز في الفكر والثقافة خارج الوزارة.. وشاء الله أن أكون ممثلاً للمملكة في المركز العربي للبحوث التربوية لدول الخليج، التابع للمكتب بدولة الكويت، وهنا

زادت صلتي بالدكتور/ محمد الرشيد، وأصبحت من القريبين والمحبين لهذا الإنسان المحترم صاحب الخلق الرفيع والمثقف والقيادي النشط، وكنا نعول عليه في الفكر التربوي، ونرقب عن كثب نشاطه ومؤتمراته الكبيرة التي تعد نتائجها مرجعاً حتى اليوم، ومن أشهرها (ماذا يريد التربويون من الإعلاميين؟)، وهو المؤتمر الذي تردد صداه طويلاً على الساحتين الإعلامية والتربوية، وكان منطلقاً لوضع بذور التعاون بين رجال التربية والتعليم ورجال الإعلام في المملكة، التي أثمرت فيما بعد العديد من البرامج التي حفل بها الحقل التربوي.

العودة للجامعة وتوطيد العلاقة

عندما عاد الدكتور الرشيد إلى جامعة الملك سعود بعد انتهاء مدة ندبه للمكتب.. كنا قد أصبحنا صديقين حميمين، واستمراراً لذلك الوفاء أكرمني (أبو أحمد) مرات عدة بأن أقوم مقامه في تدريس بعض محاضراته في الجامعة – إذ كنت متعاوناً مع الجامعة في ذلك الوقت – وذلك لتوافق آرائنا إلى حد بعيد، خاصة في الدعوة إلى الثقة في القائد التربوي في الميدان وتأهيله للريادة وتحمل المسؤولية، وأن نكسر مقولة (اتبع الخط)، فكنت ألقي بعض محاضراته في الجامعة بدلاً منه، لأنه لم ينفك من ارتباطاته مع المؤسسات العالمية التي شيد معها أكبر الجسور من التعاون والتكامل في أثناء مدة إدارته لمكتب التربية العربي لدول الخليج.

أول تربويين في عضوية مجلس الشورى

شاء الخالق تبارك وتعالى أن نلتقي مجدداً في مجلس الشورى، فكنا أول تربويين تتشرف بعضوية مجلس الشورى بعد إعادة تأسيسه عام١٤١٤هـ - وكان عاماً مشهوداً في تاريخ المملكة العربية السعودية، صدر فيه عدد من التنظيمات الوطنية المهمة متمثلة في «نظام الحكم ونظام المناطق ونظام مجلس الشورى» – وكنت وأخي الدكتور/ محمد الرشيد نمثل قطاع التربية والتعليم، أن يتولى هو القطاع الإعدادي النظري، وذلك لسابق خبرته في المجالات التي خدم فيها وعن طريقها، ومنها جامعة الملك سعود،

ومكتب التربية العربي لدول الخليج، والمؤسسات التابعة وذات الصلة والعلاقة بالمكتب، كجامعة الخليج، ووزارات التربية في دول الخليج، والمؤسسات العلمية الأخرى.. فيما مثلت أنا قطاع التربية والتعليم الميداني بحكم خبرتي الطويلة في وزارة المعارف (التربية والتعليم) معلماً ومديراً ومشرفاً ومديراً عاماً في الوزارة ووكيلاً مساعداً لمعظم قطاعات الوزارة.

وهكذا بدأنا العمل سوياً مرة أخرى في موقع آخر من مواقع الخدمة التي نتشرف بها، واستمر عطاء أخي الدكتور الرشيد، فكان من أبرز المشروعات التي تبناها في ذلك الحين: مشروع «إصلاح التعليم» الذي درسته لجنة التعليم والثقافة، وهو المشروع الأشمل الذي أقره المجلس بعد دراسة معمقة ورفع للمقام السامي الكريم، وحينما عُرض على مجلس الوزراء تم التوجيه بتشكيل لجنة لتقويم التعليم وتطويره نتيجة لهذه الدراسة، وفي عام ١٤١٦هـ حظي الدكتور محمد الرشيد بثقة القيادة بتكليفه وزيراً للمعارف (التربية والتعليم).

ومرة أخرى شرفت بعضوية فريق تقويم التعليم ضمن مجموعة من العلماء والمفكرين الذين شرفوني برئاسة لجنة التعليم العام، وذلك إلى جانب أخي وزميلي صاحب السمو الملكي الأمير الدكتور منصور بن متعب بن عبد العزيز الذي كان مسؤولاً عن التعليم الفني والقطاع العسكري، وأخي الأستاذ الدكتور فالح الفالح الذي كان رئيساً لقطاع التعليم العالي.. وجميعنا نعمل تحت إشراف رئيس الفريق الأخ الزميل الدكتور سعود بن إبراهيم الجماز الذي كان وكيلاً لوزارة المعارف في حقبة سابقة.

مكتب التربية يسير على خطى الرشيد

مرة أخرى يشاء الله تعالى أن أعمل في مكتب التربية العربي لدول الخليج نائباً للمدير العام بعد انتهاء مدة عملي في مجلس الشورى، ونقل لي الدكتور محمد الرشيد بعد حين أيضاً توجيه القيادة الرشيدة، بأن أكون مرشح المملكة لإدارة المكتب، وتوليت هذه المهمة واستمر الركض في المكان ذاته الذي كان محمد الرشيد المحرك الأساسي

لـه، وخلال قيادتي للمكتب كان يكرمني وزملائي فـي المكتب بالموافقة على كل فكرة أو برنامـج نقدمه له ولزملائـه وزراء التربية والتعليم في دول الخليـج، الذين يكنون له كل تقدير ومحبة واحترام، وأي نجاح لمكتب التربية طوال عملي فيه يعزى الجزء الأكبر منه إلى هذا الرجل الذي ينطبق عليه قول الشاعر:

ما قال لا قط إلا في تشـهده لولا التشـهد كانت لاؤه نعم

حقبـة مكتب التربية العربي كانـت بالنسبة لي منعطفاً فكرياً تربويـاً ومهنياً راسخاً ولا سيمـا مجلسـه التنفيـذي الذي كان يقوده مربـون فضلاء من الخليـج وهم: د. خالد العـواد من السعودية، ود. حمود السعدون من الكويـت، ود. حسين السادة من البحرين، ود. جمـال المهيري من الإمارات، ود. منـى الجردانية من عمان، والأستاذ ربيعة الكعبي مـن قطـر، وأخيراً د. عبـد العزيز الحبتور من اليمـن.. إنهم نخبة مـن القادة يدعمهم وزراؤهـم وعلى رأسهم الدكتور محمـد الرشيد وزير التربية والتعليم في المملكة العربية السعودية والخبير الإنساني المعروف..

وأذكر هنا أن وزراء التربية العرب استحدثوا لقاء فكرياً في كل دورة يختص بدراسة موضـوع فكري تربوي تعد لـه العدة باكراً، ونقلنا في مكتب التربيـة العربي لدول الخليج هـذه التجربـة إلى الدول العربيـة والمنظمة العربيـة للتربية والثقافة والعلـوم بناءً على اقتراح من الدكتور محمد الرشيد، وأصبح الوزراء في كلتا المؤسستين فيما بعد: المكتب والمنظمة يجتمعون سنوياً لمدارسـة الأعمال الخاصة بالجهتين وميزانياتهما، والتحاور حـول موضوع فكري وتربوي نوعي تشارك فيه الجهتان بما يعود بالفائدة على التعليم في الوطن العربي.

وفي العهد الذي كنت فيه مديراً لمكتب التربية العربي لدول الخليج، أقيمت مشروعات وبرامج نوعية عالية الجودة، وتأسست أرضية فكرية لعديد من المشروعات المستقبلية، وتنوعـت تلك البرامـج والمشروعات لتشمل: مشـروع الخطة المشتركـة لتطوير مناهج التعليـم العام التي وجـه بها القادة الأجلاء في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية،

واشتملت على عشرين برنامجاً طموحاً، وكذا وثيقة مشروع تطوير التعليم العام في دول الخليج بالتعاون مع مجلس التعاون، واشتملت على أربعة وثلاثين مشروعاً أو برنامجاً فرعياً كبيراً، تناولت مختلف مجالات العمل التربوي، ووثيقة تطوير اللغة العربية في دول الخليج والعالم العربي بالتعاون مع المنظمات الأخرى، ووثيقة تطوير مادة التربية الإسلامية، ومشروع تطوير مناهج الرياضيات والعلوم، ومشروع مدارس المستقبل، وبرنامج لقاءات الأجهزة المتناظرة في الدول الأعضاء بالمكتب، ومشروع إنشاء المركز التربوي للغة العربية بالشارقة، وبرامج الرسائل الإعلامية التربوية الموجهة للطلبة، ومشروع التأمين الصحي لكل العاملين في المكتب وأجهزته، وبرنامج تنمية الموارد الذي فتح القنوات بين المكتب ومؤسسات المجتمع الداعمة، وهذه وغيرها مشروعات شكلت علامات فارقة على المستوى الخليجي والعربي، وهي ثمار سنوات من الجدية والعمل المخلص منذ عهد الدكتور الرشيد، والمكتب الآن يواصل عمله بنجاح وبخطى واثقة وأسس واضحة تحقق له المزيد من النجاحات المتلاحقة بإذن الله.

خلافتي للدكتور الرشيد.. اليوم

وكتب الله تعالى أن أعود بعد انتهاء مدة عمل الدكتور محمد الرشيد في وزارة التربية والتعليم إلى حين الأول في ذات المؤسسة التي ودعها د. الرشيد وكأنني أسير وإياه على الخط نفسه، وشرفت بثقة ولي الأمر وتعييني نائباً لوزير التربية والتعليم لتعليم البنين، وهو الجزء الذي كان يديره ويقوم عليه أخي الدكتور محمد الرشيد حينما عين وزيراً للمعارف – أي قبل ضم رئاسة تعليم البنات إدارياً تحت مظلة واحدة – وهكذا حللت مرة أخرى في ذات المكان الذي كان يمارس فيه زميلي عمله، لأكمل المشوار بما يسمح لي بقائي فيه، قبل أن أسلم زمام الأمانة إلى زميل آخر. (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

«محمد بن أحمد الرشيد» الآن بعيد عن المسؤولية الرسمية، إلا أنه في ذاكرة الوطن بكل مكوناته ومنجزاته وآماله، وسيبقى محبوه وزملاؤه وكل من عرفه عن قرب يكنون

لـه الاحترام والإجلال، وهم يتذكرون مآثره ومواقفه من المجدين والمتحمسين، ودعمه غيـر المحدود لكل من عمل معـه.. ولازلت أؤمن بأن الإنسان حينما يشعر بسند قوي فإن إبداعاته لا حدود لها، خاصة إذا صاحب ذلك العمل جو من الود والحميمية والصدق مع الله والناس، ولا تملـك عندما تذكر هذه القامة التربوية إلا أن تدعو له وتسأل الله تعالى أن يمد في عمره ويجزيه خير الجزاء.